الحَجَّاج[1]

el-Haccâc

خَطيبٌ مِن جَبَابِرَةِ العَرَب، لَمْ يَرِثْ مُلْكاً ولا حُكْماً، ولَكِنَّه وَصَلَ بِمَوَاهِبِهِ إلى الحُكْمِ والإمَارَةِ، وكَانَتْ الفَصَاحَةُ إحْدَى وَسَائِلِهِ الكُبْرى. ذَلِكَ هُوَ أبُو محمد الحَجَّاج بنُ يُوسُف الثَّقَفِيّ.

وُلِدَ الحَجَّاجُ بِالطَّائِفِ سَنَةَ إحْدَى وأرْبَعينَ لِلْهِجْرَةِ، أيْ في السَّنَةِ التي أَسَّسَ فيها مُعَاوِيَةُ الدَّوْلَةَ الأمَوِيَّةَ. وكَانَ أبوهُ "يوسُفُ بْنُ الحَكَمِ" مِن مَشَايِخِ ثَقيفٍ ورُوِيَ أنّه كَانَ مُعَلِّمَ صِبْيَانٍ، كما رُوِيَ أنَّ الحَجَّاجَ كَانَ في أوَّلِ أمْرِهِ يُعَلِّمُ الصِّبْيَانَ مَعَ أبيهِ، ثُمَّ صَارَ دَبَّاغاً، وقِيلَ إنّه كَانَ يَبيعُ الزَّبيبَ بِالطَّائِفِ. ولَكِنَّ أَخْبَارَ الرُّواةِ قد اضْطَرَبَتْ بِشَأْنِ هذا الشَّطْرِ مِن حَيَاةِ الحَجَّاجِ الأُولى بِالطَّائِفِ والحِجَازِ، بِحَيْثُ لا نَسْتَطيعُ أنْ نَسْتَخْلِصَ مِنهَا صُورَةً صَحيحَةً نَطْمَئِنُّ إليها.

والوَاقِعُ أنَّ الرُّواةَ قدْ نَسَجُوا كَثيراً مِن الأَساطِيرِ حَوْلَ الحَجَّاجِ، ومِن ذَلِكَ مَثَلاً مَا رَوَاهُ المسْعُودِيّ في "مُرُوجُ الذَّهَبِ" حَوْلَ وِلادَتِهِ.

مَهْمَا يَكُنْ مِن الأَمْرِ فَالمعْرُوفُ أَنَّ الحَجَّاجَ حَفِظَ القُرْآنَ في صِبَاهُ، ورَوَى الأحَاديثَ وأَشْعَارَ العَرَبِ. ولِمَا كَانتْ الطَّائِفُ وَسْطَ بِيئَةٍ عَرَبِيَّةٍ تَحُوطُهَا البَادِيَةُ، فَقَدْ نَشَأَ الحَجَّاجُ عَلى فَصَاحَةِ البَدْوِ وجَفْوَةِ طِبَاعِهِم.

ولَقَدْ نَشَأَ في عَصْرِ فِتَنٍ و شَغَبٍ وحُرُوبٍ اتَّصَلَتْ مُنْذُ مَقْتَلِ الخَليفَةِ عُثْمَانَ. وكَانَ مِن أَخْطَبِ النَّاسِ في زَمَانِهِ، قَديراً عَلى ارْتِجَالِ الكَلامِ، مُبْتَكِراً لِلمَعَانِي يَسْتَلْهِمُهَا مِن طَبْعِهِ الفَيَّاضِ، وبَديهَتِهِ الحَاضِرَةِ. إلى جَانِبِ حِفْظِهِ القُرآنَ، وعِلْمِهِ بِالسُّنةِ، ورِوَايَتِهِ لِلأَدَبِ، وخِبْرَتِهِ بِنُفُوسِ الجَمَاهِيرِ، فَكَانَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَسْتَشْهِدُ بِمَا يُؤَيِّدُ عِلْمَه ويُبَرِّرُ سِيَاسَتَه.

وكانَ أُسْلوبُه يَمْتَازُ بِالجَزَالَةِ والفُحولَةِ، فَكَانَ أَشْبَهَ بِأَساليبِ البَدْوِ في قُوَّتِهِ وتَأْثيرِه في النُّفوسِ. ومِمّا زَادَ في قُوَّةِ أُسْلوبِه الخِطَابِيّ الأَعْرَاضُ التي كَانَتْ تَدْفَعُهُ إلى الخِطَابَةِ ذَلَكَ أنَّ سِيَاسَةَ الحَجَّاجِ كَانَتْ تَقومُ في جُمْلَتِهَا عَلى البَطْشِ والقَمْعِ، وكَانَ يقولُ "إنِّي واللهِ مَا أَرَى أَنْ أَرُدُّ بَنِي اللَّكِيعَةِ إلى طَاعَتِي إلا بِالسَّيْفِ". وهَكَذا مَثَلَ دَوْرَ الطَّاغِيَةِ، واتَّخَذَ أُسْلُوبَ الدِّكْتَاتُورِ، وكَانَتْ مُعْظَمُ خُطَبِهِ سِلْسِلَةً مُتَّصِلَةً مِن الوَعِيدِ يُرْهِبُ بِهَا النَّاسَ، ويَصُبُّهَا عَليهِمْ قَذَائِفَ حَاصِدَةً، وحُمَماً مُلْتَهِبَةً، ويُرْسِلُ النُّذُرَ في كَلِمَاتٍ لَهَا بَرِيقُ السُّيوفِ ودَوِيُّ القَنَابِلِ.

[1] Enver Ahmed, *Hutabâu Sana'û't-Târîh*, s. 53-54.

أَجَلْ.. كَانَ يَحْكُمُ النَّاسَ بِسَيْفِهِ ولِسَانِهِ. ومِن عَجَبٍ أَنَّ هذا الطَّاغِيَةَ الجَبَّارَ كَان يَعْنِي بِهَيْئَتِهِ ومَلْبَسِهِ. رَوَى صَاحِبُ العِقْدِ الفَرِيدِ عَن الرِّيَاشِي، عَن العُتْبَى عَن أبِيهِ قَالَ "ما رَأَيْتُ مِثْلَ الحَجَّاجِ. كَانَ زِيُّهُ زِيَّ شَاطِرٍ، وكَلامُهُ كَلامَ خَارِجِيٍّ، وصَوْلَتُهُ صَوْلَةَ جَبَّارٍ فَسَأَلْتُهُ عَن زِيِّهِ فَقَالَ كَانَ يُرَجِّلُ شَعْرَهُ ويَخْضِبُ أَطْرَافَهُ" ورُوِيَ أَنَّه حِينَمَا وفَدَتْ وُفودُ العِرَاقِ عَلى سُليمانَ بْنَ عِبدِ المِلك وسَأَلَهمْ عَن الحَجَّاجِ قَالو: "يَا أَميرَ المؤْمِنينَ، إنَّا نُخبِرُكَ عَن عَدُوِّ اللهِ بِعِلْمٍ، كَانَ يَتَزَيَّنُ تَزَيُّنَ المَوْسِمَةِ، ويَصْعَدُ المِنْبَرَ فَيَتَكَلَّمُ بِكَلامِ الأَحْيارِ، فإذا نَزَلَ عَمِلَ عَمَلَ الفَرَاعِنَةِ".

وهذه خُطْبَتُهُ الشَّهِيرَةُ: عِنْدَمَا ذَهَبَ وَالِياً عَلى العِرَاقِ تَصَوَّرَ أُسْلُوبَهُ وخَصائِصَهُ وطَابِعَهُ الفَنِّي. فَهُوَ يَبْدَأُ أَوَّلَ خُطْبَتَهُ بِأُسْلوبٍ تَمْثِيلِيّ يَسْتَدْرِجُ بِه أَهْلَ العِرَاقِ ويَسْتَرعِي انْتِباهَهُمْ، ثم يَستَشْهِدُ بالشِّعْرِ والقُرآنِ، ويَقْذِفُ وُجوهَهُمْ بِعِبَارَاتٍ خَشِنَةٍ كَأَنَّهَا قَطَعَ الصَّخْرَ.

أُنْظُرْ إليهِ وقدْ خَرَجَ إلى الكُوفَة في اثْنَيْ عَشَرَ رَاكِباً عَلى النَّجَائِبِ، ثمّ دَخَلَهَا فُجْأَةً حِينَ انْتَشَرَ النَّهَارُ، وبَدَأَ بِالمسْجِدِ فَدَخَلَهُ وقَالَ "عَلَيَّ بِالنَّاسِ". وصَعِدَ المِنْبَرَ وقدْ تَلَثَّمَ بِعِمَامَةِ خَزٍّ حَمْرَاءَ غَطَّى بِهَا أَكْثَرَ وَجْهِهِ، مُتَقَلِّداً سَيْفاً، مُتَنَكِّباً قَوْساً، وَجَلَسَ سَاعَةً لا يَتَكَلَّمُ حَتَّى قَالَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ "قَبَّحَ اللهُ بَنِي أُمَيَّةَ حيْثُ تَسْتَعْمِلُ مِثْلَ هذا عَلى العِرَاقِ" وقَالَ عُمَيْرُ بْنُ ضَابِئ البَرْجَمي: ألا أَحْصِبُهُ لَكُمْ؟ فقَالَ النَّاسُ "أَمْهِلْ حَتَّى نَنْظُرَ". فَلَمَّا رَأَى الحَجَّاجُ أَنَّ عُيونَ النَّاسِ إليهِ، قَامَ فَكَشَفَ عَن وجْهِهِ وقَالَ:

أنَا ابْنُ جَلا وطَلّاعُ الثَّنَايَا مَتَى أَضَعِ العِمَامَةَ تَعْرِفُونِي[2]

يَا أَهْلَ الكُوفَة! إنِّي لأَرَى أَبْصاراً طامِحَةً، وأَعْنَاقاً مُتَطَاوِلَةً، ورُءوساً قَدْ أَيْنَعَتْ وحَانَ قِطَافُهَا، وإني لَصاحِبُهَا. وكَأَنِّي أَنْظُرُ إلى الدِّمَاءِ تَتَرَقْرَقُ بَيْنَ العَمَائِمِ واللِّحَى.

ب – الأسئلةُ عن النّصّ

١ – كَيفَ وَصلَ الحَجّاجُ إلى الحُكمِ والإمَارَةِ؟
٢ – هل الأَخبارُ المرويَّةِ عَن الحَجَّاجِ صحيحَةٌ تَماماً؟
٣ – مَا هُو الثّابِتُ عَن حَياةِ الحَجّاجِ، ومَا قيمَتُه؟
٤ – في أيّ بِيئَةٍ نَشأَ الحَجَّاجُ؟
٥ – مَا حَالُ عَصرِ الحجَّاجِ مُنذُ مَقتَلِ عُثمَان (ض)؟

[2] "Ben diş söken yiğit oğlu yiğit, başımdaki sarığı çıkarırsam kim olduğumu anlarsınız."

٦ – بِمَ يَمتَازُ أُسلُوبُ الحجَّاجِ؟
٧ – عَلامَ كَانَت تَقومُ سِيَاسَةُ الحَجَّاجِ في جُملَتِها؟
٨ – أَكَانَ الحَجَّاجُ يَهتَمُّ بِهَيئَتِهِ ومَلبَسِه؟
٩ – ماذا قَالَ النّاسُ عَن شَخصِيَّةِ الحَجَّاجِ وإجرَاءاتِهِ القَمعِيَّةِ؟
١٠ – ماذا قَالَ الحَجَّاجُ في خُطبَتِهِ المشهورَةِ؟

ج – مُلاحَظَات نَحْوِيَّة: أدَواتُ الشَّرْطِ–٢

Birinci derste cezmeden edatlara değinilmişti. Bu derste ise şart fiili ve cevap cümlesini cezmetmeyen edatlar ele alınacak, ayrıca cevap cümlesinin başına (ف)'nin gelmesiyle ilgili kurallar hatırlatılacaktır. Cümleye şart anlamı katmakla birlikte şart-cezâ fiillerini cezmetmeyen edatlar iki tanedir: (إنْ) ve (لَوْ). Bunların her ikisi de Türkçemize "şayet, eğer" şeklinde tercüme edilir. Bazen, anlama ve iraba etkisi olmamak üzere (لَوْ) ile kurulmuş şart cümlesinin cevabının başına (لَ) harfi getirilir. Örnekler:

لَوْ تَزْرَعُ الشَّرَّ تَحْصُدُ النَّدَمَ. "Kötülük ekersen, pişmanlık biçersin"

لَوْ أدْرَكَ النَّاسُ قِيمَةَ الوَقْتِ، لَكَانَتِ البَشَرِيَّةُ في مَكَانَةٍ أَرْقَى اليَوْمَ.

"Şayet insanlar vaktin kıymetini idrak etselerdi, bugün insanlık daha ileri bir yerde olurdu."

Esasen, şart ve cezadan oluşan şart cümlesinin başında (ف) harfinin bulunmamasıdır. Ancak şu beş durumda cevap cümlesinin başına (ف) harfinin getirilmesi zorunludur:

1. Cezâ isim cümlesi olursa: "ومَا تَفْعَلوا مِن خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَليم"
2. Cezâ, talebi cümle olursa: "قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ"
3. Cezâ (لَيْسَ، بِئْسَ، نِعْمَ، عَسَى) câmid fiillerden olursa:

"إنْ تَتُوبُوا إلى اللهِ فَعَسَى أنْ يَرْحَمَكُمْ"

4. Cevap cümlesinin başında (لَنْ، مَا، لَا) gibi olumsuzluk edatlarından biri bulunursa:

"ومَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنه"

5. Cevap cümlesinin başında (س، سَوْفَ، قَدْ)'den biri olursa:

"مَنْ يُطِعِ الرَّسولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ"

Talebî cümle; emir, nehiy, temenni ve soru bildiren cümlelerdir. Cevap cümlesinin başına (ف) geldiğinde, cümle mahallen meczum kabul edilir. Ancak cevap cümlesinin başında (ف) bulunmazsa, şart ister cezmeden edatla ister cezmetmeyen edatla kurulmuş olsun, cümlenin iraptan mahalli yoktur.